لم أفكر يوماً أن أمتهن التعليم!

منتصر جميل صيفي

المعلم منتصر صيفي.

أتذكر أول يوم دخلت فيه مدرسة دار الزهراء في الكويت العام 1986، كنت سعيداً قبل الذهاب إليها لما ألبسه من ملابس جديدة وحقيبة جديدة أيضاً، ولكن سرعان ما تبددت هذه الفرحة إلى خوف شديد. دخلت المدرسة متأخراً، وهنا اتخذت قراراً سريعاً بالعودة إلى البيت، وإلى الآن لا أعلم كيف عدت وحدي إلى البيت، ومن ثم عاد أبي إلى البيت مرة أخرى، واصطحبني إلى المدرسة، وأمسك بيدي، وأنا أرتجف خوفاً، ولكنه طمأنني، وكذلك معلمة الفن التي خففت عني سريعاً.

من المواقف التي لا تنسى في المدرسة ما جرى مع أستاذ اللغة العربية، وكيف كان يدخل علينا حاملاً معه عصا داخل حقيبة تشبه حقيبة الطبيب. كان هذا المعلم إذا حرك يديه تجاه هذه الحقيبة ارتعبنا خوفاً؛ لأنه حتماً سيكون هناك عقاب، ما سبب لدى الكثير منا عقدة الخوف من الخطأ، إضافة إلى الخوف من الطبيب، الذي يحمل هذه الحقيبة نفسها، لهذا كنت أواجه متاعب كثيرة عند العلاج.

ومن الأشياء التي عاصرتها في ذلك الوقت معلم الدين، كان رجلاً طيباً ويعامل الجميع بمحبة، ولكن الطلاب كانوا يستغلون طيبته ويفتعلون المشاغبات إلا أنا؛ لأنني قد أحببت هذه النفس الطيبة، التي لم تدم طويلاً، حيث فارق الحياة، وحزنت عليه كثيراً، فقد كان إنساناً رائعاً جداً. وحضر بديلاً عنه أستاذ أكثر شراسة لا تفارقه العصا، فتحولت مادة الدين لدي من مادة محببة إلى قلبي وأبدع فيها، إلى مادة لا أجد فيها سوى كره للأستاذ.

معلمة الفن في مدرسة دار السلام كانت معلمة رائعة، فقد سعت هي دائماً إلى تطوير مهارتي بالرسم، وتشجيعي بكلمات بسيطة، ولكن لها أكثر من معنى: يا شاطر، يا بطل، أحسنت، رسم بجنن، ... .

وفي الصف الخامس الأساسي، قامت الحرب بالكويت العام 1990، وهنا انقطعت عن الدراسة مدة عام كامل، قبل أن يقرر أبي العودة إلى أرض الوطن، فالتحقت بمدرسة كفر زيباد، وأتممت مرحلة تعليمي، إلى أن وصلت إلى التوجيهي العام 1998.

هذه السنوات التي قضيتها كانت رائعة، تعرّفت على عدد من زملائي في المدرسة، إضافة إلى معلمين كانوا يجتهدون دائماً في سبيل الطلاب، على الرغم من المعاناة التي كنا نعانيها بسبب بعد المدرسة عن قريتنا، والأحوال الجوية التي أرغمتنا مرات عدة على الركض هرباً من المطر الشديد. من الناحية التعليمية، المعلم لا يكل ولا يمل في إعطاء كل ما يملك من معلومات ومتابعة الطلاب وتحفيزهم، إلى جانب معاقبة المقصرين أحياناً.

أنهيت التوجيهي سنة 1998، والتحقت بجامعة بيرزيت، وهنا شهدت أصعب أيام حياتي، وبخاصة السنة الأولى. ذهبت إلى الجامعة دون أن يكون لدي أي فكرة عنها، ذهبت إلى القاعة،

وكانت أول محاضرة لنا كيمياء. جلسنا وبدأ الدكتور يشرح ونحن كلنا متابعون لتحركاته، دون أن نكتب أي كلمة؛ لأن اللغة التي كان يتحدث بها كانت الإنجليزية، والشخص الوحيد الذي كان يدوّن المحاضرة هو طالبة واحدة فقط – هنا بدأ الهم ينتابنا، كيف لنا أن نفهم مادة كلها لغة إنجليزية، وفي تخصص العلوم.

بقيت على هذه الحال حتى جاءت السنة الثانية، وكنت قد رسبت بمادة الحاسوب (باسكال)، حيث درستها وأنا لا أعلم عن الحاسوب شيئاً، ولا أعلم كيف تدرس المواد، فقد تعودت على طريقة تدريس باللغة العربية، ولذا واجهت صعوبات كثيرة. عند التسجيل قالت لي الموظفة: أنت فوت جوا. استغربت وسألتها عن السبب: «وليش أنا بالذات». دخلت إلى الداخل لأفاجَأ بموظفة أخرى تخبرني بأنني لا أستطيع أن أكمل في كلية العلوم، ويجب أن أذهب إلى كلية الآداب. هنا خالطني شعور بالفرح؛ لأنني سأتخلص من تخصص حمله كان كبيراً علي، ومن شعور حزين؛ لأنه بداية فشل لمسيرتي التعليمية، وتحطيم لطموح أبي.

لا أعلم كيف سارت هذه الأيام، وكيف واجهت الأمر مع عائلتي –شعور كان قاسياً– دخلت كلية الآداب ودرست اللغة العربية، على الرغم من أني لم أفكر يوماً في دراستها، أو أن أعمل معلماً. تخرجت من الجامعة دون أن أحصل على أساليب التدريس، فضلاً عن أنني لم أقف منذ بداية تعليمي إلى ما بعد الجامعة أمام الناس أشرح وأتحدث؛ لأنني كنت خجولاً، إضافة إلى الخوف من الخطأ أمامهم؛ فأسمع ما لا يسرني!

عندما تخرجت من الجامعة، كنت أظن أن مهنة التعليم كأي مهنة في العالم، يمكن أن تكون ناجحاً فيها بكل المقاييس، ولكن عند دخولي لمعترك التعليم، والخوض في حيثياته المعقدة، والقوانين الجافة، والدورات التي خضناها عن طريق وزارة التربية والتعليم، كنت أظن أنني وصلت إلى مرحلة متقدمة في فن توصيل المعلومة، وبخاصة أنني قد تخرجت من الجامعة مكتسباً المعلومة لا مرسلاً لها، بطرق فنية مختلفة، هذا عدا عن التوتر الذي كنت أصاب به عند سماعي كلمة مفتش تربوي، إضافة إلى أن الحصص الصفية كانت جامدة في أغلب المواضيع، ويصاب الطلبة أحياناً بنوع من الملل بسبب الروتين والطريقة التقليدية في التدريس. ولكني اليوم أكتب قصتي المتواضعة، أكتبها وقد امتلأ فؤادي ثقة وعزيمة وحباً للتعليم.

أقولها اليوم، وبكل صدق وأمانة، أن أسلوبي في التعليم قد تغير إيجاباً بفضل أمور عدة، منها دورة الدراما في التعليم، والدبلوم التربوي من جامعة النجاح الوطنية، والإدارة الجديدة في المدرسة التي أعمل بها، حيث اكتسبت العديد من المهارات القيمة المتعددة، إضافة إلى القيم المستفادة التي تتمثل في احترام الآخر، والابتعاد عن النقد السلبي والتعليق غير المبرر، هذا فضلاً عن توسع آفاق البحث عن أساليب متطورة، وتطوير لغة تتواصل بها مع طلابك تكسر حاجز الخوف، وتراعي الاحترام المتبادل، إلى جانب الاستفادة من العلاقات الاجتماعية الرائعة مع زملاء المهنة والمدربين التي تتيحها هذه الدورات.

أذكر أول يوم لي كمعلم للصف الثاني، وكيف كانت خطواتي مرتبكة؛ أول مرة أقف أمام الناس، لكن شعور الخوف هذا تبدد سريعاً، عندما شاهدت ابتسامة طالب ما منحني دافعاً قوياً، وسار اليوم وباقي الأيام على خير.

في البداية، كنت شخصية عصبية، لا أقبل أن يناقشني أحد، وأفرض أسلوبي بشكل إجباري، وأحياناً باستخدام العصا. لهذا، كان الصف يخيم عليه الهدوء والصمت، ومع هذا كنت لا أقبل أن يقاطعني أحد من الطلاب، وإلا تعرض إلى التوبيخ أو الضرب في بعض الأحيان، لذا كان الجو مشحوناً، والطلاب يتجنبون أي نقاش معي، أو حتى الاقتراب مني، أو زيارتي في غرفة المعلمين.

أتذكر في إحدى السنوات، أنني تعرضت لكسر في يدي اليمنى، وغبت عن المدرسة قرابة شهر، ولم يقم أحد من الطلاب بزيارتي أو السؤال عني بسبب أسلوبي المتشدد في ضبط الصف، الذي اعتمدته بناء على نصائح من «ذوي الخبرة». هنا شعرت بأني شخصية غير ناجحة، وأن أسلوبي هذا لم يجدِ نفعاً بعد سنوات من استخدامه. وحتى عندما عدت إلى المدرسة، لم أسمع من أحد من طلابي أي كلمة تهنئني بالسلامة، إنما العكس، رأيت في أعينهم شعور بالخوف من العقاب الذي كان في السابق.

حتى عندما كان يأتي المشرف التربوي لحضور إحدى حصصي، يبدأ الخوف والارتباك على الطلاب، إضافة لي، فتخرج الحصة عادية جداً، لا يجد فيها المشرف أي تميز أو إبداع، حتى أنني أذكر مرةً كيف قامت المشرفة بطرح مجموعة من الأسئلة على الطلاب، فقاموا بتوجيه نظراتهم نحوي، وكأنهم يقولون لي «نحن نخاف أن نخطئ يا أستاذ خشية عقابك بعد مغادرة المشرفة».

في الحقيقة، لم تكن اللغة العربية ومعلمها طوال هذه السنوات محط اهتمام الطلاب، ولا أنسى المنهاج وما يحمله من ثقل كبير من معلومات وعدد كبير من الصفحات، وكيف أنه يحتاج إلى فنان لإيصال المعلومة؛ إضافة إلى الأوراق اليومية التي يقوم المعلم بتعبئتها، والتي تزيد من أعبائه. في الحقيقة، هذه الأمور كانت من أصعب الأشياء التي مررت بها طوال السنوات الماضية، إلى أن

جاءت لحظة التحاقي بدورة الدراما في التعليم، عن طريق منتدى المثقفين في قلقيلية، وبالتعاون مع مركز القطان للبحث والتطوير التربوي/مؤسسة عبد المحسن القطان، إضافة إلى برنامج التأهيل التربوي في جامعة النجاح، والمعهد الوطني، ود. سهيل صالحة، هنا بدأ تغير كبير في شخصيتي كمعلم، انعكس إيجاباً على تعاملي مع طلابي، وعلى أساليبي في التعليم.

انخراطي في هذه الدورة، وما تضمنته من أساليب وتدريبات، اكسباني الكثير من التقدير لمهنة المعلم، فتعلمت أساليب جديدة أثرت على طلابي بشكل كبير. في السابق –مثلاً– كنت عند حضوري إلى المدرسة كان الطلاب يجلسون ولا يتحركون خوفاً مني، ولكن بعد هذه الدورات تغير الحال ليصبح عكسه تماماً، طلابي يأتون من كل أنحاء المدرسة لإلقاء التحية والسلام علي، وهنا لا أستطيع أن أصف شعوري كم كان رائعاً فعلاً، حيث أنهم أحبوني كثيراً، وقاموا بزيارتي إلى البيت مرات عدة، عدا أن حصة اللغة العربية أصبحت حصة ممتعة.

أدركت مدى أهمية أن يحب الطالب معلمه، وكيف أن المعلم يستطيع التأثير عليه بشكل كبير، من تنمية مهارات، وتقوية الشخصية، والمحادثة أمام زملائه دون خوف، واحترام رأي الجميع، وعمل صفحة للمدرسة يتواصل فيها الطلاب بعد دوامهم، وتتضمن تحميل أساليب تدريسية جديدة، حيث لاقت رواجاً كبيراً. إضافة إلى ذلك، قمت بتحويل مادة اللغة العربية من مادة جامدة إلى مادة محببة أكثر من أي مادة أخرى. وأذكر هنا كيف قال لي أحد طلابي «يا أستاذ أعطينا عربي بدل الرياضة». ونحن نعلم مدى تعلق الطلاب بمادة الرياضة.

أما من ناحية زيارة المشرف التربوي، ففي السابق كنا نشعر بالخوف والارتباك، أما اليوم فنحن نستمتع بحضوره؛ سواء بالنسبة لي، أو بالنسبة لطلابي.

لقد بدا هذا التغير واضحاً للجميع في المدرسة وفي محيطها، حتى أن وفدين من مدرستين مجاورتين لنا هما مدرسة ذكور كفر قدوم، ومدرسة بنات حجة الأساسية، قاما بزيارة لنا لحضور إحدى الحصص التي أقدمها، كما أن المشرفة التربوية وعدتني في أخر زيارة لها لي، بإحضار مجموعة من المعلمين والمعلمات لحضور حصة تعليمية في مدرستنا.

أما من الناحية الاجتماعية، فقد صرت أشجع طلابي على زيارة بعضهم البعض في المناسبات، وزيارة الآخرين في القرية. وأثناء مكوثي في المستشفى مرة أخرى، قام عدد من الطلاب بزيارتي، وكم كنت سعيداً لذلك.

مدرسة كفر عبوش الثانوية المختلطة/ طولكرم

المعلم منتصر الصيفي خلال مشاركته في أحد لقاءات الدراما في التعليم مع مركز القطان للبحث والتطوير التربوي.